المريض الصامت

إلياس أبو شبكة

المريض الصامت

تأليف
إلياس أبو شبكة

هنـــداوي

المريض الصامت

إلياس أبو شبكة

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٣ ١٨٦٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2019 Hindawi Foundation C.I.C.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

مقدمة المريض الصامت	٧
أيتها الفتاة	٩
الملك الصامت	١١
المريض العاشق	١٣
أم المريض	١٥
أخت المريض	١٧
رؤيا في حلم	١٩
هذيان في الظلام	٢١
أمام الفجر	٢٣
رعشة في الظلمة	٢٥
ليلة عصيبة	٢٧
على القبر	٢٩

مقدمة المريض الصامت

أيها القارئ

إن ما تقرأ في هذه الصفحات لهو حقيقة أليمة نطقت بها الروحُ المتألمة في ليلة من ليالي الأرَق، وألبسَها القلم رداءً شفَّافًا من أرديته الحمر. في كل شطرٍ من أشطارها نقاطٌ من الدم ما تزال نديَّة، وفي كل مقطع من مقاطعها مشهد من مشاهد الألم ما يبرح نصب العين. ليس عهد «المريض الصامت» ببعيد، فتراب القبر لَمَّا يجفَّ بعدُ على جسده الطاهر، وتذكاره الموجع ما فتئ يرود في مخيلةِ عارفيه.

إلياس أبو شبكة

أيتها الفتاة

إن الروح التي تلامسين خلال هذه السطور إنما هي صورة مكبَّرة لروحك الحساسة. والخيال الصادق الذي تستشفِّين إنما هو رمزٌ ناطق لخيالك السامي الشريف. فتقبَّلي هذه القطعة الدامية تذكارًا لحبِّنا المدمَّى، فأنتِ أحقُّ بها مِنْ سِوَاكِ؛ لأنك أَوْحَيْتِها بلفظةٍ ملؤها الشعور، خرجت من بين شفتيكِ في ساعةٍ من ساعات حبٍّ جريح. أسأل الله أن يختم عليه بلطفه ورحمته، إنه أرحم الراحمين.

الملك الصامت

شاعرُ القلبِ ضاقَ عنه البيانُ ... والقوافي واللفظُ والأوزانُ
صامتٌ يُرسلُ التنهُّدَ شعرًا ... كلَّما هزَّ قلبَه خفقانُ
تَقرأُ الوحيَ في عذوبةِ عَيْنَيْـ ... ـه فآياتُ عَينِهِ قرآنُ
نفسُهُ جذوةٌ من الله لم تَد ... نَسْ فتمحو نقاءَها الأضغانُ
فهْو في موكبِ الحياةِ حكيمٌ ... وهْو في مركبِ الدُّجى رُبَّانُ
يجد التَّائهونَ فيه عزاءً ... وأمانًا إذا تلاشى الأمانُ
لقَّنتْهُ الأيام موعظة النا ... رِ فثارت في صدرِه النيرانُ
غيرَ أنَّ السَّماءَ قالتْ له: «اصمتْ» ... انظروا كيفَ يصمتُ البركانُ
شيَّدت قصرَ وحيه الأشجانُ ... وطلاه من الدموعِ دهانُ
زاهد في الحياة، في بردتيه ... جسدٌ شفَّه الضنى جوعانُ
ملكٌ، عرشهُ المصائبُ والهَمُّ ... وياقوت تاجه الأحزانُ
صولجانُ الآلامِ في قبضَتَيْهِ ... ويحَ ملكٍ آلامُه الصولجانُ
لجريرٍ في روحِه شهقاتٌ ... ولقيسٍ في قلبِهِ تَحنانُ
وبقايا من المعرِّي تمشَّت ... في دماه لم تمْحُها الأزمانُ

المريض العاشق

في ربيع الحياةِ، حلوُ الخِصالِ ... طـيِّـبُ الـخُـلـقِ واسـعُ الآمـالِ
أوشكتْ صورةُ الألوهة أن تَكْـ ... ـملَ فيه لولا اعتراض الزوالِ
قلبُه قلبُ ربِّه، حينَ يقري ... يُطعِمُ اليتمَ قلبُه، لا يبالي
فـي حـنـايـاهُ لـلـفـقـيـر حـنـوٌّ ... وحـنـيـنٌ لآيـةٍ فـي الـجَـمـال
لفتاةٍ تبكي على شاطئ النيـ ... ـلِ، وراءَ النخيلِ، فوقَ الرمالِ
لـفـتـاةٍ عـذراءَ لـم تـدرِ لـولا ... هُ مـعـانـي الـعـذابِ والأهـوالِ
لـفـتـاةٍ أحـبَّـهـا وأحـبَّـتْـ ... ـهُ فعاشَ القلبانِ بعضَ ليالِ
في ربيع الحياة يقضمه الدا ... ءُ، وللداءِ قسمةٌ في الرجالِ
صامتٌ يسأل الرؤى في سريرٍ ... يـتـخـطَّـى بـه إلـى الآجـالِ
عَرفَ الموتَ قبل أن ينتحيهِ ... فـإذا الـمـوتُ مَـنْـفَـذٌ لـلـكـمـالِ
فاصطفاهُ خِلًّا له، وكثيرًا ... ما تمنَّاهُ، في الليالي الخوالي
صـامـتٌ، إنـمـا الـمـحـدِّقُ فـيـه ... يـتـراءَى لـه ومـيـضُ خـيـالِ
فكرةٌ من خلالِ عينيه تبدو ... غـلَّـفـتـهـا شـفـافـةٌ مـن جـلالِ
يا جلالَ النفوسِ، أنتَ من الخُلْـ ... ـدِ ولو كنتَ في غلافٍ بالِ

أم المريض

أيُّ داءٍ يـشـفُّـهُ، أَيُّ داءِ ... يا إلهي، يا مُنقِذَ الأبرياءِ
أيُّ داءٍ يشفُّهُ، فعلى عَيْـ ... ـنَيْهِ طيفٌ ذو جبهةٍ سوداءِ
كلُّ ليلٍ، يمرُّ يسلبُ منه ... زهراتٍ تعهَّدَتْها دمائي
قيل لي: إنه سيُشْفَى، ولكنْ ... مقلتاهُ توارتا في غِشاءِ
في غشاءٍ يشفُّ عن بعضِ روحٍ ... ليس فيه للأُمِّ بعضُ رجاءِ
لونُه أمسِ غيرُه اليومَ، إنَّ الـ ... ـدَّاءَ يمحو عنه جمالَ الفتاءِ
ربِّ رُحماكَ! لا تُذِلَّ فؤادي ... بحبيبي، ولا تجهِّم مسائي
ربِّ، لا تَضْرِبِ الحزينةَ بالثُّكْـ ... ـلِ ولا تبلِني بهذا البلاءِ
لا تدعني — يا ربُّ — أحمل أَوْجَا ... عي أمامَ الباقينَ من أبنائي
لا تُلَطِّخْ باليأسِ بيضَ شُعوري ... يا عزاءَ الأمومةِ البيضاءِ
وأصاخَت حينًا لتَسمعَ صَوتَ الله ... واللهُ معرضٌ في السماءِ
فكأنَّ السما بناءُ نحاسٍ ... وكأنَّ الظَّلامَ عرشُ قَضاءِ
وكأنَّ النجومَ في شرفةِ اللَّيـ ... ـلِ شموعُ الأكفانِ للأحياءِ
وعيونُ المريضِ تزدادُ نَزْعًا ... كلَّما ازداد روحُه في الضياءِ

أخت المريض

تَسألُ الغَيْبَ أن يُريها المَصيرَا ... وتُـوالـي بـكـاءَهـا والـزفـيـرَا
تستغيثُ الإلهَ حينًا، فلا تَسْـ ... ـمعُ صوتًا، فتستغيثُ النذورَا
وإذا خـيَّـمَ الـدُّجـى سـألـتْـهُ ... بعضَ نورٍ، فلا ترى فيه نورَا
تستعين الرَّجا، فيبدو لها اليأ ... سُ كَأَنَّ الرجاءَ باعَ الضَّميرَا
أيبسَ الليلُ في نقاوةِ خدَّيْـ ... ـها بِحَرِّ الأَنينِ، تلك الزهورًا
كلَّما أَطلقَ المريضُ زفيرًا ... خشيتْ منه أن يكون الأخيرَا
حَجَبَتْ حزنَها وراءَ ابتساما ... تٍ لتُخفي عن أمِّها المقدورَا
وكذا الأمُّ بالتَّبَسُّمِ كانَتْ ... تَحجُبُ الحزنَ عن بنيها شهورَا
غيرَ أن الفتى تَجاهَلَ إيها ... مًا فأعطى الآلامَ قلبًا كبيرًا
أنكرَ النومُ مقلةَ الأُختِ حتى ... آلَفَتْ رهبةَ الدُّجى والسريرَا
لم تحوِّلْ عنه النواظرَ إلا ... عندما أَوْشَكَ الأسى أن يثورَا
أيُّ قلبٍ أشدَّ من قلبِ أُختٍ ... في أشدِّ الآلامِ ظلَّ صَبورَا؟
أيُّ روحٍ أرقَّ من روحِ أُختٍ ... تَهَبُ الجهدَ، لا تبالي العسيرَا؟
أيُّ صدرٍ أحَن من صَدرِ أُختٍ ... في ليالي الأَسى، وأسمى شعورَا؟

رؤيا في حلم

حملَ الداءَ من شواطئ مِصرَا وأتى زحلةً فصادَفَ قبرَا
لم تُرِعْهُ طيوفُ بلواه لو لم تختلجْ في هواهُ أطهر ذِكرى
حينَ يهوي الدُّجى يمرُّ بهِ الأمـ ـسُ على جانحيه يحملُ جَمْرَا
أيُّ جمرٍ أحَر من جَمرِ حُبٍّ صادفَ القلبَ موقدًا فاستقرَّا
إن غفا مرَّتِ الفتاةُ برؤيا هُ تنادي ربًّا، وتَلطُم صَدرَا
تارةً تفجرُ الدموعَ، وطورًا تُمسِكُ الدمعَ في المَحاجِرِ قَسْرَا
تَتَخَطَّى أمام قبرٍ جديدٍ نثرَت فَوْقَه دموعًا وزَهرَا
بدَّل الحُزنُ وَجْهَهَا، فهْوَ لم يَبْـ ـقَ كما كانَ يهرقُ الحسنَ سِحْرَا
وإذا ما استفاقَ حدَّق في الظُّلْـ ـمَة حينًا كمن توقَّع أَمْرَا

* * *

وأجالَ العيونَ، في الغُرفةِ السَّوْ داءِ، علَّ الظلامَ يكشفُ سرَّا
ثمَّ أصغى لنَغْمةٍ في حنايا هُ تلوَّى لذِكرها واقشعرَّا
وهْو يدري أنَّ الرؤى أيقظَتْه من شجونٍ إلى شجونٍ أُخرى
ذاتَ ليلٍ أحسَّ في رِئتيْهِ خلجةً مُرَّةً فخَفْقًا أَمَرَّا
وتراءَت له فتاةُ هواهُ شَبَحًا داميًا، فأَوْجَسَ ذُعْرَا

هذيان في الظلام

عند ذا هبَّ جالسًا وتهيَّا ... لِيُناجي غَرامَهُ العُذْرِيَّا
وحَفيفُ الصفصاف يهمِسُ في النَّهْـ ... ـر كلامًا عن الحياةِ خَفِيًّا!
قال: أَصْغِي إليَّ، إنِّيَ فانٍ ... فالقُوى لن تعودَ بعدُ إليَّا
أنا أمشي إلى الضريحِ حثيثًا ... فعذابي يثورُ في رِئتيَّا
أيُّ نفعٍ تَرْجِينَهُ يا عروسي ... من بُكاءٍ ما عاد ينفعُ شيًّا؟
أيُّ نفعٍ، والموتُ ينسجُ ثوبي ... بخيوطِ الظلامِ من مُقلَتيَّا
إرْجِعِي، إرْجِعي فتذكار حُبِّي ... وليالِيَّ، بات ثقلًا عليَّا
إرجعي، إنني بُلِيتُ وما أَصْـ ... ـبَحَ غيرُ الديدان يَرْغَبُ فيَّا!
في شواطي النيلِ السعيدِ مياهٌ ... فاسألِيها غدًا زلالًا شهيًّا
واستعيدي به هوًى وشبابًا ... «نيلُك» العذبُ غيرُ «بردونيًّا»
وإذا ما مررتِ تحتَ نخيلِ الـ ... ـنَّهْر يومًا حيثُ ابتسمنا مليًّا
حيثُ كنَّا نَبني قُصُورَ الأماني ... حيثُ كُنَّا نَجْني الشَّبابَ النَّدِيَّا
حيثُ كنَّا نُلَقِّنُ القلبَ دَرسًا ... فَيَعيهِ النخيلُ من شَفَتَيَّا
فاحْذَري وقفةً هناك لئلَّا ... تَسمعي من فمِ النَخيلِ نَعِيَّا

أمام الفجر

واستفاقَ المريضُ من هَذَيانِهْ ... ولهيبُ النيرانِ في أجفانِهْ
وحُماتُ الأوجاعِ تنزعُ منهُ ... ما تبقَّى من عمرِهِ في جَنانِهْ
وأمرَّ البنانَ يسترجِعُ الرُّشْـ ... ـدَ على أصغرٍ نَبا عن مكانِهْ
إنمَّا الأصغرُ الذي نَهَكَتْهُ ... حُمَّةُ الداءِ ضلَّ في خفقانِهْ

* * *

وأتى الفجرُ فوقَ عرشٍ منَ النُّو ... رِ تسيرُ الكروبُ في رُكْبانِهْ
وخيوطُ الضبابِ تنسجُ أعلا ... مًا لَوَتْها الصِّبَا على صَولَجَانِهْ
فأطلَّ المريضُ من شرفةِ البَيْـ ... ـتِ يناجي الصباحَ في مِهرجانِهْ
فإذا بالصباحِ يحملُ رمزًا ... أسودَ الوجهِ جاءَ قبلَ أوانِهْ
وطفَتْ مُقلتاهُ فوق مياهِ الـ ... ـنَّهرِ، والنهر سائرٌ في أمانِهْ
فتراءى له المصيرُ قريبًا ... شفَّ عنه الزلالُ في جَرَيانهْ
وتراءى له ضريحُ رُخامٍ ... رقدتْ زهرةٌ على جُدرانهْ
زهرةٌ حين ضلَّ عنها نداها ... ضلَّ عنها الشبابُ في ريعانِهْ
وتراءى له على صفحةِ الما ... ءِ سطورٌ مسودَّةٌ، كزمانهْ
أفصَحَتْ عن نبوءَةٍ تمَّمتْها ... نزواتُ المساءِ في إبَّانهْ

رعشة في الظلمة

أيتها الفتاة

كيف حالُ المريض، ماذا جرى له ... كيف أمسى تُرى، وفي أيِّ حالهْ؟
إنَّ قلبي لدى سؤالِك هذا ... يقفُ اليومَ، قاطعًا آمالَهْ!
ما يُفيدُ النواحُ يا أختَ نفسي ... إنني قسمةُ الرَّدى، لا محالهْ
كلَّ ليلٍ أرى خيالَ ضريحي ... وأرى الموتَ يستعدُّ خِلالهْ
كنتُ قبلًا أُعلِّلُ النفسَ لكنْ ... علةُ الصدرِ لا تبقِّي عُلالهْ
امحقي ذكرياتِ أمسِ، فخيرٌ ... لكِ ألَّا يبقى لأمسٍ سُلالهْ
امحقيها بحقِّ روحي وحُبِّي ... امحقيها، فالذكرياتُ ضلالهْ
واعلمي أن دمعةً فوق من تهـ ... ـوين، تحتَ الترابِ تؤذي خيالَهْ

المريض

قرأَتْها فأمسكت عبراتٍ ... لو أُريقَتْ في النيلِ هالَت جلالهْ!
عبراتٌ من ذوبِ قلبٍ مُدمَّى ... لو أُريقتْ في القفرِ أدمَتْ رِمالهْ!
أمسكتها عن الرسالةِ حتى ... لا تُهين الدموعُ تلكَ الرسالهْ
وكأنَّ الدُّجى مريضٌ يوالي ... في الشواطي مع النخيلِ سُعالهْ
وإذا رعشةٌ أمرَّت عليها ... جانحيها، والليلُ يطوي ظِلالهْ
وأتى الفجرُ شاحبًا فوق موجا ... تٍ كأنَّ السُّعالَ أشغلَ بالهْ!

ليلة عصيبة

ذات ليلٍ كتربة القبرِ باردْ ... أو كصدرٍ، خلا من العطفِ، حاقدْ
عرَّجَتْ غادةٌ ملثَّمةُ الوَجْـ ... ـهِ على فندقٍ بزحلة حائدْ
وأطلَّتْ ترى المدينة في الليْـ ... ـلِ بجفنٍ ساهٍ، وقلبٍ واجدْ
فإذا زحلةٌ كمقلةِ ثكلى ... وإذا النهر، ساكن الماءِ، جامدْ
فأحسَّت برعشةٍ عقبتها ... خلجةٌ في صميم فكرٍ شاردْ
وأمالتْ عن المدينة وجهًا ... جهَّمتْه أشباحُ تلكَ المشاهدْ
وأتاها الغلامُ يحملُ فِنجا ... نًا من الشاي في السكونِ السائدْ
نَظَرَتْ نظرةً إليه بجفنٍ ... هو للسهد والشجون موارِدْ
ثم قالت: «كيف المريض؟» وأدنَتْ ... من جِفافِ الفنجانِ فاهَا الخامدْ
فأجاب الفتى ببعضِ ارتيابٍ: ... وحفيفُ الصفصافِ في النهرِ هاجدْ
«رحمَ الله من تُسمِّين، أمسى الْـ ... ـقبر مأواهُ، منذ يومٍ واحدْ!»

* * *

لم يكد يَلْفِظ العبارة حتى ... جمدت جمدة الدُّمى في المساجدْ
وارتمَتْ لا تفيق من شدة اليأ ... س، فخاف الغلام، واليأسُ جاحدْ
أيها الليلُ ما ظلمتَ قلوبًا ... لو عرفت القلوبَ ماذا تُكَابِدْ!

على القبر

وترامى الصباحُ فوق الهضابِ بخيوطٍ شفَّافةٍ من ضَبابِ
وبياضُ الثلوجِ تحت ضياءِ الْـ ـفجرِ يبني بين الكرومِ روابي
وأطلَّ الرهبانُ من شُرفةِ الدَّيْـ ـر عزاء النفوسِ في الأتعابِ
فرأوا نقطةً على القبر سَوْدَا ءَ كرؤيا تبينُ خلفَ السحابِ
قال صوتٌ: «هذي عروسٌ من الجنِّ تزورُ الضريحَ للإرهاب»
قال ثانٍ: «لا بل ذهِ روحُ مَيْتٍ تستغيثُ الإلهَ تحتَ العذابِ»
ومضى ثالثٌ يقول: «هي الرمْـ ـزُ ليومِ الدينونةِ الغلَّابِ»
وأخيرًا مَضَوا إلى القبرِ حتى يطمئنوا للمشهد العُجَّابِ
فرأوا جثةً مبعثرةَ الشَّعـ ـرِ تناجي وعينها في الترابِ
لم يُبق السقامُ والحزنُ منها غَيْرَ رؤيا بقيةٍ من شبابِ

* * *

ما جَرى للفتاةِ بعد فَتاها أيها الحُبُّ، يا سليلَ الخرابِ؟
ما جرى للفتاةِ؟ أينَ هي الْيَوْ مَ؟ أَجِبْنِي يا باعثَ الأوصابِ
هل طواها الذي طوى مَن أحبَّتْ أم تُراها عادتْ لذاكَ التصابي؟
عِشْ طويلًا، وَضَحِّ ما شئتَ، يا حبُّ إلى أن يثنيكَ يومُ حِسابِ

٢٠ كانون ثانٍ ١٩٢٨

هنـــداوي